« النقيض »* الذي لم يصر « تركيبا »

مقدمة شخصية

بتهيب اكتب عن « النقيض » لانني لم احبب هذه الرواية ، وأخشى ان يقودني الهوى الى غمطها بعض مزاياها . على انني ، في الوقت نفسه ، أخشى ان تقودني هذه الخشية الى التكفير عن مشاعري السلبية بتصيد الحسنات وتكبيرها ، على الاقل من اجل تفادي تهمة التحامل .

يذكرني هذا الموقف بما سمعته ، منذ زمن ، في محفل ادبي ، من استنكار واستهجان لاقدام بعض النقاد على « التحرش » بالاعمال التي لا تلقى هوى في نفوسهم .

وقد قيل ، فيما قيل ، ان الاعمال الادبية الجيدة كثيرة ، فلماذا يشغل الناقد نفسه بأعمال لا تستهويه ؟ ولماذا لا يحصر همه باستخراج مواطن الابداع في الاعمال التي يعتقد انها مجيدة ؟ واشهد ان هذا المبدأ يوافق المزاج الخاص والمصلحة الشخصية للناقد . ذلك انه يريحه من عذاب المعاناة مع نص لا تستريح اليه نفسه من جهة ، ويوفر عليه ، من جهة اخرى ، متاعب العلاقة الشخصية مع صاحب النص ، ما دام كل حكم سلبي في النقد كفيلا ــ على الاقل في مرحلتنا الحاضرة ــ بأن يستجر غضب صاحب النص وعداوته ، واتهامه للناقد بانه « لم يفهم » ، و« عجز عن ادراك ... » ، « وفاته ... » ، و « اغفل او تغافل ... » ، وغير ذلك من كلمات القاموس المهذب . اما القاموس الاخر ، فأقله كلمات مثل « الجهل ... الحقد ... والدس ... والافتراء ... » .

ان تعامل الناقد مع النصوص التي تروقه عملية حكيمة ، مافي ذلك شك .

واذا تركنا الموقف الشخصي جانبا ،استطعنا ان نقول ان هذا التعامل ، ذا الجانب الوحيد ، كفيل بأن يحيل الناقد الى مداحة غير نواحة،وبالتالي كفيل بأن يفقده مصداقيته ومن ثم مسؤوليته ، واخيرا سيكون ذلك عاملا من عوامل عرقلة تكوين المعيار التذوقي المشترك الذي بفضله استطاعت الروائع العظيمة ، خلال عصور التاريخ ، ان تنال الاعتراف العام ، وان تظفر بالخلود .

ولكن في الحالة التي اكتب عنها الان ، وهي رواية «النقيض»، يؤلمني الموضوع من زاويتين

الاولى ان هذه الرواية خلطت الدر بالاجر ، وهي مشروع لعمل جليل وجاد وخطير ، اجتمعت له عناصر ممتازة من سلامة التفكير ونفاذ النظرة وصدق التجربة ، ولكنه لم يستطع ان يكون « تركيبا » مصقولا جذابا ، لا نه ربما كتب تحت تأثير جو معين .

* دراسة لرواية « النقيض»، للدكتور افنان القاسم ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٧٨ .